مقياس : النقد الأدبي المعاصر

السنة الثانية ليسانس/ تخصص لسانيات

إعداد : الأستاذة عبلة معاندي

عنوان المحاضرة: النقد الأسلوبي

حول مفهوم الأسلوب:

ورد لفظ أسلوب في لسان العرب بمعنى الطريق والوجه والمذهب ، والجمع أساليب، والأسلوب: الفن، ويقال: أخذ فلان في أساليب من القول أي في أفانين منه. ولا يبتعد اللفظ الأجنبي عن هذا المعنى، وقد أشار مجدي وهبة في معجم مصطلحات الأدب إلى مفهوم الأسلوب، فقال:" الأسلوب هو بوجه عام : طريقة الإنسان في التعبير عن نفسه كتابة، وهذا هو المعنى المشتق من الأصل اللاتيني للكلمة الأجنبية Stylo الذي يعني القلم". و إذا كان مصطلح الأسلوب قد سبق مصطلح الأسلوبية إلى الوجود والانتشار فإن القواميس التاريخية في اللغة الفرنسية مثلا تصعد بالأول منها إلى القرن الخامس العشر، وبالثاني منهما إلى بداية القرن العشرين. و ارتبط مصطلح الأسلوب فترة طويلة بمصطلح البلاغة حيث ساعد على تصنيف القواعد المعيارية التي تحلها البلاغة إلى الفكر الأدبي والعالمي منذ عهد الحضارة الإغريقية وكتابات أرسطو على نحو خاص.

ولقد وظفت الدراسات الحديثة-خاصة منها الأسلوبية- هذا المصطلح بتحديدات عدة، لكن أغلبها لم تخرج عن تحديد مفهوم الأسلوب انطلاقا من علاقته بالمنشئ باعتباره ذاتا مبدعة، فيحدد الأسلوب بكونه موقفا يتخذه المستعمل للغة كتابة أو مشافهة بما تعرضه عليه اللغة من وسائل، لهذا يعتبر جورج بوفون في عمله الشهير

(مقال في الأسلوب) حين أعلن أن" الأسلوب هو الرجل" وقد حاول من خلال هذا التعريف ربط قيم الأسلوب الجمالية بخلايا التفكير الحية والمتغيرة من شخص إلى شخص لا بقوانين التزيين الجامدة التي يستعيرها المقلدون من المبدعين دون إدراك حقيقي لقيمها أو استغلال جيد لها. وإذا كان الأسلوب حسب هذا المنظور ظاهرة فردية ، وتعبيرا عن تجربة ذاتية، فإنه عند بعض الأسلوبيين نسق مشترك عند بعض الفئات من الكتاب والأدباء، حيث عادة ما نجد أسلوبا مشتركا عند الذين ينتسبون إلى اتجاه أدبي أو فني معين. يعرف معجم أكسفورد الكبير الأسلوب بأنه طريقة التعبير المميزة لكاتب معين (أو لخطيب أو تحدث) أو لجماعة أدبية أو لحقبة أدبية ن حيث الوضوح والفاعلية والجمال وما إلى ذلك.

وكما هو جلي،تتعدد المفاهيم الاصطلاحية للأسلوب، وتتباين الاتجاهات والرؤى في تحديد معناه؛ فليس هناك تعريف واحد للأسلوب يتمتع بالقدرة الكاملة على الإقناع، ولا نظرية يجمع عليها الدارسون في تناوله، وقد حاول الباحث صلاح فضل اختزال مختلف هذه التعريفات في ثلاث مجموعات:

1-التعريفات التي ترد الأسلوب إلى المرسل، وتمييز الأساليب باعتبارها خواصا للكتابة المحددة المجسدة للطابع الشخصي للكتاب، ويدخل في هذا الإطار الاتجاه التوليدي في دراسة الأسلوب الذي يركز على الطابع الشخصي للأساليب، وتتصل بذلك أيضا مجموعة التعريفات التي تنظر إلى الأسلوب باعتباره اختيارا لغويا بين بدائل متعددة.

2- تعريفات تركز على الخواص المتمثلة في النص ذاته بغض النظر عن قائله كما تتجسد موضوعيا في الأعمال الأدبية، وعندئذ تبرز تعريفات تعتبر أن الأسلوب:

-انحراف عن قاعدة يمكن أن تتمثل في المستوى العادي المألوف.

-بروز واضح لخواص نوعية في جسد الكتابة تتبلور فيها المعالم المميزة له.

- محصلة مجموعة من الملامح المرجعة بنظام خاص في النص الأدبي، بمعنى أن الملمح الوارد مرة واحدة لا يشكل سمة أسلوبية، لكنها عندما تتجلى بالتكرار بإيقاع محدد يصبح حينئذ سمة أسلوبية.

3- تعريفات تربط الأسلوب بالطرف الثالث من عملية التواصل: "المتلقي"، باعتباره هو الذي يميز بين الخواص الأسلوبية ويدركها ويكشف انحرافها وبروزها عن طريق ما تحدثه من أثر...وحينئذ يتجلى مفهوم القارئ النموذجي الذي قدمه ريفاتير لكي يصبح هو محور التعرف على الخواص الأسلوبية وتصبح الاختيارات المتعلقة به والتحليلات المرتبطة بردود فعله هي منطقة تحديد المعالم الأسلوبية وإخضاعها للتحليل والتفسير.

والنتيجة التي نخلص إليها مما سبق، أن هناك اختلافا في تحديد مفهوم الأسلوب ومرجع الاختلاف بين الباحثين والنقاد في تحديد مفهوم محدد للأسلوب بنظرية الإبلاغ أو الإخبار، حيث لابد لأي عملية تخاطب من مخاطِب ومخاطَب وخطاب(مرسل ومستقبل و رسالة)؛ ومن ثم فالأسلوب لا يمكن دراسته أو بحثه دون أن يرتبط بعناصر الاتصال: المؤلف والقارئ والنص.

الأسلوبية: النشأة والمفهوم

يرى أغلب مؤرخي الأسلوبية أن الميلاد الحقيقي لعلم الأسلوب يعود إلى بدايات القرن العشرين على يد الباحث شارل بالي الذي نشر كتابه الأول عام 1902 بعنوان(بحث في علم

الأسلوب الفرنسي،ثم أتبعه بعدة دراسات أخرى مطولة نظرية و تطبيقية أصّل بها علم الأسلوب وأسس قواعده، وقد عرّف الأسلوبية بأنها" العلم الذي يدرس وقائع التعبير اللغوي من ناحية محتواها العاطفي أي التعبير عن واقع الحساسية الشعورية من خلال اللغة وواقع اللغة عبر هذه الحساسية". فالعمل الأسلوبي في نظر بالي ينبغي أن يركز على تتبع الشحنات العاطفية في الكلام بثا واستقبالا، لهذا سميت أسلوبية بالي بالأسلوبية التعبيرية، هذه الأسلوبية تهدف إلى دراسة القيم التعبيرية الكامنة أو المثارة في الكلام، وقد اهتم بالي أساسا باللغة المنطوقة، ليلاحظ التي يمكن قيامها بين المحتوى العاطفي والصيغة التي يصب فيها. واهتمام بالي بالمحتوى العاطفي جعله لا يهتم بالجوانب الجمالية، وتركيزه على اللغة المنطوقة صرفه عن الاهتمام باللغة الأدبية باعتبارها ثمرة الجهد الإرادي بقصد جمالي بمعنى أنها ناتجة عن وعي و قصدية من قبل المؤلف، مما يفضي إلى اصطناع وتحوير لا يعبران عن طبيعة اللغة وعلاقتها بمستخدمها ، ولذلك كانت لغة التخاطب اليومي هي العينة التي يصلح التعامل معها لاستخلاص حقائق موضوعية، بعيدا عن كل تأمل معقد.

وقد عارضه في هذا الأمر بعض اللغويين ، على غرار الباحث الأسلوبي كريسو الذي اتخذ موقفا عكسيا تماما من أستاذه ، فيرى أن العمل الأدبي هو ميدان العمل الأسلوبي الممتاز إذ إن اختياره للعناصر الأسلوبية يتم بدقة إرادية واعية وينقد بذلك مبررات عزل الأدب، فالعمل الأدبي شكل من أشكال التواصل أيضا والعناصر الجمالية فيه مردها إلى رغبة المؤلف في جذب القارئ و إمتاعه. لقد ظهر بعد شارل بالي عدد من الأسلوبيين الذين سلكوا مسالك واتجاهات عدة في هذا العلم الجديد، وقد استطاع هؤلاء إثراء البحث الأسلوبي برؤى معرفية ومنهجية جديدة ، جعلت منه علما متعدد الاتجاهات ، يختلف رصدها وحصرها من باحث إلى آخر. لهذا يمكن الحديث عن عدة اتجاهات أسلوبية متمايزة: أسلوبية اللغة، الأسلوبية الأدبية، أسلوبية الانزياح ، أسلوبية بنيوية، الأسلوبية الإحصائية...

ويمكن القول إن تعدد ميادين الأسلوبية وتداخلها في حقول واسعة مثل اللسانيات ، النقد الأدبي، علم البلاغة، وعلم النص ، صعب من مهمة الأسلوبية في إثبات قدرتها على فرض وجودها وإزالة ما علق بها من إشكالات تأسيسية (لعل أهمها ما يسميه عبد السلام المسدي : ضياع الهوية العلمية للأسلوبية في مغبة المعارف المحاذية كاللسانيات والنقد الأدبي وتحليل الخطاب...)،جعلت بعض الباحثين كميشال أريفي لا يترددون في إعلان موتها.

هكذا إذن تراوحت الأسلوبية بين مد وجزر منذ نشأتها فقد ازدهرت في السنوات بين 1950-1960، ثم ما لبثت أن تراجعت فيما بين1968-1975، حتى ظن بعض نقاد الأدب أن الأسلوبية قد زالت من الوجود، ثم شهدت تحولا جذريا مع انتشار الدراسات اللسانية وما تبع ذلك من هيمنة المنهجيات البنيوية في ميادين العلوم الإنسانية. ووفق جورج

مولينيه فقد كان تطور الدراسة الأسلوبية شاملا: في النوع،، والشكل ، والكمية. و في هذا يقول: الأسلوبية ساحرة ظن بعض الناس أنها ماتت، في حين ضمها بعضهم الآخر إلى صدره حتى غشي عليها: تاريخها إذن هو تاريخ تغيراتها.

الأسلوبية في النقد العربي

لقد تأخر انتقال الأسلوبية إلى الخطاب النقدي العربي إلى أواخر السبعينيات من القرن المنصرم بفعل جهود مشتركة أسهم فيها كل من: عبد السلام المسدي ، وشكري عياد و فايز الداية وعدنان بن ذريل ولطفي عبد البديع وصلاح فضل ومحمد عبد المطلب ومنذر عياشي وبسام بركة ومحمد الهادي الطرابلسي ومحمد عزام وسعد مصلوح وعبد الملك مرتاض وحميد لحمداني وغيرهم ممن تناول الأسلوبية من منطلق نظري أو من منطلق تطبيقي .

والمتأمل في دراسات هؤلاء الأسلوبيين وغيرهم يلحظ تعددا في أساليب النظر واتجاهات البحث مثلما في الدراسات الأسلوبية الغربية ، وحتى إذا كان من الصعب رسم خريطة شاملة لهذه الاتجاهات ،فإنه يمكن للمتثبت في منطلقاتهم المبدئية المضمنة في ما وضعوه من مقدمات تمهيدا لمعالجة موضوع الأسلوبية وجود اتجاهين رئيسيين في الغايات المستهدفة من التعامل معها: اتجاه أول يعلن صراحة مشايعته لمنهج النقد الجديد – ومنها الأسلوبية- ويدعو إلى الأخذ بأسبابها ، واتجاه ثان يأخذ من السابق بعض تحمسه للإفادة من المكتسبات النقدية الجديدة داعيا في الوقت ذاته إلى تجديد قراءة التراث البلاغي والنقدي العربي وإعادة الاعتبار إلى مفاهيم قديمة لم تنل حظا وافرا من الاهتمام . وإلى هذا الاتجاه يشير الباحث في قوله: ولا تخلو دعوة بعض الأسلوبيين العرب إلى تأصيل واضح ومستوعب للأسلوبيات اللسانية منطلقين من تجديد البلاغة العربية، مؤكدين متانة الصلة واستحكامها بين البلاغة والأسلوبية، لاعتقاد بعضهم أن الأخيرة وليدة البلاغة و وريثها الشرعي، ومدركين في الآن نفسه كونهما فرعين معرفيين ينتظمان في مسارين تاريخيين مختلفين مثلما يكشف عنه قول عبد السلام المسدي : "الأسلوبية امتداد للبلاغة ونفي لها في نفس الوقت هي لها بمثابة حبل التواصل وخط القطيعة في نفس الوقت أيضا". ولم تحل هذه الدعوة التأصيلية دون استثمار للأدوات المصطلحية و المنهجية التي يقترحها المنجز اللساني، فالأسلوبية –في عرف المسدي دائما هي "علم لساني يعنى بدراسة مجال التصرف في حدود القواعد البنيوية لانتظام جهاز اللغة "، وهو ما يذهب إليه عدنان بن ذريل حين يعرف علم الأسلوب بأنه:علم لغوي حديث يبحث في الوسائل اللغوية التي تكسب الخطاب العادي ، أو الأدبي خصائصه التعبيرية، والشعرية، فتميزه عن غيره..إنها تتقرى(الظاهرة الأسلوبية) بالمنهجية العلمية اللغوية وتعتبر(الأسلوب) ظاهرة هي في الأساس لغوية تدرسها في نصوصها وسياقاتها .

ولئن اتفق الدارسون العرب على وجود وشائج وصلات وثيقة بين الأسلوبية ومبحثي البلاغة واللسانيات إلا أنهم توقفوا أيضا عند الفروق الجوهرية بين الأسلوبية وما يجاورها من علوم ومعارف وعلى رأسها كما سبق ذكره البلاغة و اللسانيات.

-الأسلوبية / البلاغة :مواطن الاختلاف

لقد عمد الباحثون العرب إلى رصد أنحاء الاختلاف والتقابل بين الأسلوبية والبلاغة . والمتتبع لدراساتهم في هذا الموضوع يستوقفه محوران انتظمت حولهما هذه الدراسات:

أ- الدور الوظيفي:

انصرف اهتمام الدارسين العرب إلى استجلاء الوظيفة الاجتماعية و الإيديولوجية للبلاغة، من حيث أنها كانت أداة يملكها علية القوم-قديما- لبسط نفوذهم وفرض قيهم على الشرائح العريضة من المجتمع، وهو ما يعبر عنه صلاح فضل بقوله: "كانت البلاغة أداة فريدة تستغلها الطبقة المثقفة للهيمنة وفرض إرادتها على الآخرين". وعلى النقيض من ذلك تهتم الأسلوبية باللغة الذاتية سواء كانت فردية أو جماعية، اللغة المستعملة للتعبير عن المشاعر الفردية والتجربة الذاتية، و يعتبر هذا الاتجاه حصيلة تطور في النظرة إلى الأشياء وإلى الوجود، وهو ما يعبر عنه محمد عزام بقوله: فقدت البلاغة حقوقها ونزلت عن عرشها ودمرت قواعدها النموذجية بعد أن تغيرت نظرة الإنسان إلى الكون والمجتمع والحياة فتغيرت وظائف اللغة ولم تعد صورة لشكل خارجي بل أصبحت وسيلة للتعبير عن الأفكار و المشاعر في موقف محدد نابع من ذوات الأفراد ووضعهم الاجتماعي الأمر الذي جعل من اللغة و من ثم البلاغة الجديدة تمتزج بالحياة العملية. وهذا يعني فيما يعنيه أن الأسلوبية – التي تسمى عند بعضهم البلاغة الجديدة- لم تعد مؤسسة قائمة على قواعد وقوانين متى طبّقت كان التعبير الجميل العالي وانما أصبحت كما يذهب إليه الباحث حمد عزام" نقدا للأساليب الفردية" واختبارا نجريه بمقاييس تجريبية على العلامة باعتبارها "مخلوقا ماثلا في العالم".

ب- الخصائص:

لئن كانت البلاغة القديمة –حسب بعض الدارسين العرب- معيارية تقويمية محكومة بقوالب جاهزة تلقن في المؤسسات التعليمية وتفرض على الإبداع ، فإن الأسلوبية تنتهج نهجا وصفيا تجريبيا وتتقيد بمناهج العلوم الوضعية وتحصر مهمتها في وصف الظاهرة الإبداعية وصفا موضوعيا، وبذلك تبوأت الأسلوبية منزلة المعرفة المختصة بذاتها أصولا ومنهجا. على هذا ، يميز عدنان بن ذريل بين الأسلوبية والبلاغة بأن الأولى تريد أن تكون علمية تقريرية، تصف الوقائع، وتصنفها بشكل موضوعي،منهجي بعد أن كانت البلاغة(...) بروح معيارية،نقدية صريحة، وتعلم الأفضل من القول...

الأسلوبية/ اللسانيات: مظاهر الاختلاف

لقد صبّ العديد من الباحثين العرب جهدهم في التركيز على مظاهر الاتفاق بين مبحثي الأسلوبية واللسانيات، لكنهم لم يغفلوا أيضا الحديث عن مظاهر الاختلاف بينهما ، ولم يفت الدارسين العرب إجمالا التنبيه إلى بعض هذه المظاهر ، والتي يمكن حصرها فيما يلي:

أ-وظيفة العلامة اللغوية في كلا المبحثين: "من وجوه الاختلاف ما يرتد عند صلاح فضل إلى طبيعة العلامات اللغوية للمادتين المتخذتين موضوعا للدرس، ففيما ينصرف علم اللغة إلى دراسة الشفوي، يعنى علم الأسلوب بدراسة النصوص المكتوبة بمختلف أنواعها مقصيا من مجاله جميع أشكال المنطوق، مع كل ما يترتب عن هذا الاختلاف في طبيعة العلامة اللغوية المدروسة من نتائج على مستوى التحليل. ولعل أحد أكثر مظاهر الاختلاف أهمية وأبعدها أثرا – حسب صلاح فضل دائما –أن الخطاب الشفوي يرمي إلى التعبير المباشر عن الحاجات و تبليغ المقاصد بأقرب السبل و أبسط الوسائل، من ثم كان نزوعه إلى العفوية وعن النزوع إلى تبليغ الرسالة تبليغا مباشرا نفعيا. لهذا الاختلاف أثره على الطبيعة المعرفية للمبحثين اللغوي والأسلوبي، فبينما يعتمد الأول-أي المبحث اللغوي- على التجريد والاستنباط الشكلاني وصولا إلى إثبات القواعد المولدة للملفوظات الموجودة بالفعل والموجودة بالقوة ، أي القائمة في حكم الاحتمال، يهتم التحليل الأسلوبي بوصف ما هو عيني موجود بالفعل، وعملية الوصف تقتضي بدورها –متى أرادت تحقيق أكبر قدر من الكفاءة العلمية، التصنيف الذي يعتمد – كما يذهب إليه صلاح فضل- على جمع الآثار بحسب خصائصها المشتركة ثم تفريعها إلى أقسام أصغر فأصغر انتهاء بها إلى الأثر الواحد المتميز بسمات ذاتية تفرده عن سائر الآثار.

على هذا الأساس تختلف طريقة تعامل الدارس الأسلوبي مع العمل الفني ، فهو يتعامل معه بوصفه نتاجا من مادة خام شكلت في صياغة فنية وصبغت بألوان فاستقامت كائنا متميزا له مقوماته النوعية ومنطقه وأسسه الخاصة ، هذه المقومات تضيف إلى إمكاناتها قيما جديدة دون أن يكون بوسعه إسقاط القيم الأولى أو تجاهلها ، وهذا يعني في ما يعنيه أن الدارس الأسلوبي يسعى إلى تعيين الملامح والخصائص الجديدة، بينما يرتكز عمل اللساني على تشريح العناصر أو الوحدات اللغوية المكونة للخطاب العادي.

ب- الكلام العادي/ الكلام الأدبي:

يؤكد العديد من الأسلوبيين العرب أن الدراسة الأسلوبية تختص بالاستعمال اللغوي المخصوص ذو السمة الفردية والمحقق في الأعمال المكتوبة. و لإبراز هذه الحالة الخاصة قاد التحليل إلى التمييز بين الخطاب العادي والخطاب الأدبي ، والتركيز تحديدا على القيم التعبيرية الجديدة التي يختص بها الخطاب الأدبي، وفي هذا يقول المسدي: إذا كانت عملية

الإخبار مجرد علة الحدث الألسني أساسا، فإن غائية الحدث الأدبي تكمن في تجاوز الإبلاغ إلى الإثارة وتأتي الأسلوبية في هذا المقام لتتحدد بدراسة الخصائص اللغوية التي بها يتحول الخطاب من سياقه الإخباري إلى وظيفته التأثيرية والجمالي

أبرز الاتجاهات الأسلوبية :

يغلب على الدراسات الأسلوبية العربية الطابع التعليمي البيداغوجي ، بهدف تعريف القراء العرب بهذا المجال البحثي الجديد بمختلف منظريه مدارسه واتجاهاته، هذا لا ينفي سعي بعض المحاولات إلى البحث العميق والاستقصاء الدقيق للمبادئ الأساسية التي تقوم عليها مختلف النظريات الأسلوبية، والملاحظ –هاهنا- أنه "لا توجد اختلافات جوهرية بين الدارسين العرب في تقديمهم النظريات الأسلوبية الغربية المعروفة. وقد يكون الأمر مرده إلى عاملين: أولهما أن الدارسين العرب اعتمدوا مصادر متشابهة لا نستبعد أن يكون جلها من صنف الكتب الغربية المعرفة بالاتجاهات الأسلوبية في جملتها(...) أما العامل الثاني ولعله الأظهر ، فحاصله أن هذه النظريات بلغت في مظانها حدا من التبلور والاستقرار لم تعد معه محل جدل مثير". وعلى هذا الأساس تبنى الأسلوبيون العرب نفس التقسيمات الأسلوبية الغربية، "حيث قسمها عدنان بن ذريل إلى ثلاثة اتجاهات كبرى وهي على التتالي:أسلوبية التعبير والتي عنيت بالتعبير اللغوي، والأسلوبية التكوينية، والتي عنيت بظروف الكتابة ، والأسلوبية البنيوية التي عنيت بالنص الأدبي وجهازه اللغوي، كما قسمها محمد عزام – بدوره- إلى ثلاثة أقسام مماثلة: الأسلوبية التعبيرية، الأسلوبية الفردية(أو أسلوبية الكاتب) ، الأسلوبية البنيوية.

بينما يذهب الباحث الجزائري نور الدين السد إلى التمييز بين أربعة اتجاهات أسلوبية هي : ا لأسلوبية التعبيرية، والأسلوبية النفسية، والأسلوبية البنيوية، والأسلوبية الإحصائية.

أما فيما يخص طبيعة التحليل الأسلوبي ، فقد رأى العديد من الباحثين العرب –على غرار الباحث محمد عزام- أن التحليل الأسلوبي يمكن أن يطبق على نص أدبي مستقل أو نتاج مؤلف أو مقارنات أسلوبية أو تغير الأسلوب حسب الأمكنة والأزمنة والموضوعات بإجراءات منهجية مختلفة ولعل أبرزها: منهج تحليل الانحراف الذي يستدعي التسلح بالإجراء الإحصائي، ومن بين أهم الباحثين العرب الذين انتهجوا المنهج الإحصائي ؛ الباحث المصري سعد مصلوح ، يعد كتابه المعنون " الأسلوب، دراسة لغوية إحصائية" الذي نشره في بداية الثمانينيات من أهم الكتب التي اعتمدت الإجراءات الإحصائية، ثم تلت هذا العمل جملة من الأعمال جمعها الكاتب في مؤلفه المعنون" في النص الأدبي- دراسة أسلوبية إحصائية" ، وقد عمد الباحث من خلالهما إلى تشخيص أساليب بعض النصوص العربية و رصد السمات الأسلوبية والتمييز بينها، فأبعد الجوانب النفسية والجمالية والدلالية

التي تتعلق ببنية النص الداخلية فبقيت هذه الدراسات جافة بعيدة عن شعرية النص وفضائه النصي.